

بداية القصة القصيرة في الأدب الأمازيغي من خلال مجموعة "إمارين" لحسن إد بلقاسم : دراسة للسياق والقضايا

محمد أفقير

جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير

عرف الإبداع الأدبي الأمازيغي تحولات كبرى على مستويات عديدة؛ مست تاريخه وأنواعه وطبيعته وإبداعه وقراءته، كان من نتائجها ظهور أجناس أدبية جديدة تنتمي إلى الأدب الحديث، وتمثل القصة القصيرة إحدى أهم هذه الأجناس الحديثة والجديدة التي عرفها الأدب الأمازيغي.

وسنهتم في هذا المقال بتناول تجربة البداية في مسار القصة القصيرة الأمازيغية كما تجلت في مجموعة "إمارين" لحسن إد بلقاسم؛ باعتبارها أول مجموعة منشورة، من خلال الوقوف عند بعض معطيات السياق السوسيوثقافي لفهم ظروف ولادتها وشروط تكونها، ولتتبع التأثير الذي مارسه المرجعية الواقعية في بعدها الاجتماعي والسياسي على الإنتاج الأدبي، ليس على المستوى المضموني والدلالي فقط، بل أيضا على مستوى البناء الفني والسردي، وعلى أهداف الكتابة ورهاناتها ومشروع تحديث الأدب الأمازيغي السردي ككل، وكيفية تجاوب القصة فنيا وتقنيا مع هذه المرجعية.

بصدد مفهوم البداية

هل نتحدث عن بداية أم بدايات؟ وهل ترتبط البداية بنص محدد أو بنتاج كاتب معين؟ أو بمحاولات جيل أو أجيال؟ وهل من تمكن من نشر نصوصه هو بالضرورة أول من نال شرف البداية والتأسيس؟ إنها أسئلة إشكالية تشي بحجم الاختلاف الذي يمكن أن يحصل بخصوص هذه القضية، ومن ثم فكل محاولة لتحديد البداية والتأسيس تبقى نسبية ومرتبطة بالرؤية المعتمدة. ولكي نرصد البداية المحتملة لأي جنس أدبي ننطلق إما من المعطى التاريخي المحض، فلا ننشغل كثيرا حينئذٍ بالنظر إلى إتقان مقومات الكتابة في الجنس الأدبي المعني؛ وتتبع مختلف أشكال الخرق لتلك المقومات. وإما أن ننطلق من معيار نصي خالص فلا يهمننا آنذاك إلا النص في بنيته الداخلية، فإن تمكن من الوفاء لمقومات ومعايير محددة يكون مؤهلا ليحظى بتدشين البداية والتأسيس للجنس الأدبي المعني، وإن لم يتمكن لا يكون مؤهلا لذلك.

وسنطلق في هذا المقال من المعيار الأول أساسا لبناء هذه الدراسة؛ مستحضرين للسياق التاريخي الاجتماعي والسياسي والفكري، انسجاما مع واقع الأدب الأمازيغي وتطوره، لأننا نعتقد بأن المعيار النصي من شروطه الأساس حصول تراكم كمي كبير للنصوص الأدبية الإبداعية، وهو ما لم يتحقق بعد للأدب الأمازيغي خصوصا في شقه السرد.

بصدور ديوان "إسكراف" ¹iskraf لمحمد مستاوي¹ تبدأ مسيرة الأدب الأمازيغي الحديث أو المكتوب² بالمغرب، وهو أول عمل إبداعي أمازيغي فردي مكتوب ومنشور، وذلك سنة 1976³.

ويمثل هذا التاريخ وهذا الحدث منعطفًا مهما وأساسيا وعلامة فارقة في تاريخ الأدب الأمازيغي "تؤرخ للبداية الفعلية لظهور أدب أمازيغي جديد ذي سمات ومقومات حديثة"⁴، تلته بعد ذلك أعمال إبداعية أخرى شكلت إبان صدورهما ظاهرة لافتة؛ لأنها "سلكت مسلك الكتابة في سياق زمني ران فيه على أذهان البعض تصوّر مفاده أن لا مجال لخروج هذا الأدب عن طوق الشفاهة، ولا أفق لمغامرة في هذا المسار"⁵. وهكذا بدأت تجربة الكتابة الأدبية الحديثة في الأدب الأمازيغي بالمغرب، وهي تجربة لا يمكن فصلها عن سياقها الزمني المرتبط بالتحويلات السوسيوثقافية المختلفة للمجتمع المغربي وبنشأة الوعي العصري بالهوية، والرغبة في تحديث الثقافة والانخراط في الحداثة، ومن الباحثين من ينطلق من هذا الحدث للتأريخ لبداية تحول الوعي بالهوية من الوعي التقليدي إلى الوعي العصري⁶.

1 صدر عن مطابع دار الكتاب بالدار البيضاء سنة 1976 في 123 صفحة، وأعيد طبعه سنة 1991 بمطبعة المعارف الجديدة بالرباط في 122 صفحة.

2 يسميه سالم شاكّر بالأدب الأمازيغي الجديد néo-littérature ينظر:

CHAKER, S. (1992), La naissance d'une littérature écrite, Le cas berbère (Kabylie), Bulletin des Etudes Africaines IX (17/18)

3 ظهرت قبله مبادرة قامت بها الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي سنة 1974، إذ جمعت عدة نصوص شعرية مكتوبة لمجموعة من المبدعين في ديوان مرقون ومحدود التداول باسم "إموزار" imuzzar. وقبلهما ظهر كتاب "أمانار" سنة 1968، دون فيه أحمد أمزال مجموعة من النصوص الشعرية للشعراء "زوايس" بالجنوب المغربي.

4 فؤاد أزروال، الأدب الأمازيغي المعاصر بالمغرب، مظاهره وقضاياها، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط 2015، ص 5.

5 أحمد المنادي، الشعر الأمازيغي الحديث، دراسة في تجربة التأسيس، مطبعة دار السلام، الرباط، ط 2018، ص 7.

6 يقول الحسين وعزي: "تستمر هذه الفترة [فترة التوسع والانتشار] التي تلي بدايات تحول الوعي التقليدي بالهوية إلى الوعي العصري، من صدور ديوان شعر "إسكراف" (القيود) سنة 1976". نشأة الحركة الثقافية الأمازيغية بالمغرب، تحليل سيروية تحول الوعي بالهوية الأمازيغية من الوعي التقليدي إلى الوعي العصري، مطبعة المعارف الجديدة، ط 2000، ص 5.

أما القصة القصيرة فهي جنس أدبي جديد وحديث النشأة⁷ في الأدب الأمازيغي؛ لم يظهر في شكل مجموعة مطبوعة ومنشورة إلا في أواخر السنوات الثمانين من القرن الماضي، والمجموعة الأولى هي "إماراين imarayn" (عشاق) لحسن إد بلقاسم سنة 1988، وأقدم نص في المجموعة ترجع كتابته إلى سنة 1975 (نص أكبور)⁸. وبهذا يتحقق السبق للقصة القصيرة المكتوبة باللغة الأمازيغية بالمغرب مقارنة بنظيرتها بالمجالات الأمازيغية الأخرى ولدى المجموعات الكبرى الناطقة بالأمازيغية. ففي الجزائر، على سبيل المثال، لم يرَ هذا الجنس الأدبي النور ويخرج للوجود في شكل مجموعة قصصية مطبوعة ومنشورة إلا سنة 1998، السنة التي نشر فيها كمال بوعامرة مجموعته القصصية الأولى "نكني د ويبيض nkni d wiyiÄ"، بالرغم من أن النصوص القصصية المفردة ظهرت على صفحات المجلات منذ أواسط السنوات الثمانين؛ ذلك أن القصة الأولى نشرت بمجلة "تافسوت" سنة 1985 بعنوان "تارگيت targit" (الحلم)، لكايتها مزيان اوموح⁹.

السياق العام للميلاد والنشأة

حديث عن الشروط أو العوامل التي ساهمت في ميلاد القصة القصيرة باللغة الأمازيغية، يبدو أنه من غير المجدي أن نبحث عن هذه العوامل والأسباب ضمن المجال الأدبي، بأن ننظر في أنواع أدبية سابقة ونفترض أنها تطورت وصارت نوعا جديدا، كأن نعتبر مثلا أن الحكاية تطورت وأعطتنا القصة القصيرة. إن البحث عن العوامل والأسباب يجد مرجعيته في التحولات الاجتماعية والتاريخية وأشكال الوعي بها أو المترتبة عنها؛ لأن صيرورة الأدب من صيرورة التاريخ وأن الأدب "يعد، بداهة، نتاجا تاريخيا أي شكلا من أشكال الوعي. ومن ثم يصبح النوع الأدبي استجابة لتفاعل تاريخي ومؤشرا عليه"¹⁰. لأجل هذا، ونظرا لارتباط ميلاد كتابة القصة القصيرة والكتابة الأمازيغية الحديثة عموما بميلاد الوعي الأمازيغي الحديث، هذا الأخير الذي جاءت ولادته بدوره استجابة لشروط تاريخية معينة ولتحولات جديدة على المستويات كافة، اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية، متصلة بواقع ما بعد الاستقلال وخصوصا فترة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، لأجل هذا سنحاول تقديم لمحة عن بعض التحولات التي ساهمت في نشأة الوعي الأمازيغي الحديث.

⁷ لم تنشأ القصة القصيرة بمفهومها الحديث في الأدب العالمي إلا في غضون القرن التاسع عشر.
⁸ إذا لم تتوافر قرائن أو مؤشرات دالة، فإن التاريخ الوحيد الذي نعتد به للتأريخ لعمل ما هو تاريخ النشر.

⁹ Ait Ouali, N. (2015), *L'écriture romanesque kabyle d'expression berbère* (1946-2014), Alger, L'Odysée éditions, p. 127.

¹⁰ نجيب العوفي، مقارنة الواقع في القصة القصيرة المغربية، من التأسيس إلى التجنيس، المركز الثقافي العربي، ط1، 1987، ص23.

نشأة الوعي الأمازيغي الحديث

إذا استثنينا فترات وأحداث تاريخية محدودة والتي يمكن أن تكون تجليات مبكرة لوعي أمازيغي موعود رغم ما يلفها من غموض¹¹؛ فإن المسألة الأمازيغية لم تطرح قبل الاستعمار الفرنسي لأسباب تاريخية، منها أن المغرب الأقصى، خصوصا في السنوات الأولى لدخول الإسلام، كان أمازيغي الهوية واللغة¹². هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم تكن المسألة الأمازيغية لتطرح لأن الأمازيغية "لم تكن منبودة أو مهمشة، فقد كانت سائدة في أوساط العلماء والمخزن على السواء، بل إن التمكن منها كان من شروط تولي الخطابة في عهد الموحدين"¹³.

وفي الفترة الاستعمارية، ومباشرة بعد توقيع معاهدة الحماية سنة 1912 واجهت فرنسا وإسبانيا الاستعماريين مقاومة القبائل الأمازيغية في مختلف المناطق والجهات تحت شعار الجهاد. ففي الأطلس المتوسط ألحق موها وحمو الزياني هزيمة نكراء بالفرنسيين في معركة الهري سنة 1914، وفي الشمال واجهت إسبانيا مقاومة شرسة على يد القبائل الريفية بقيادة الشريف أمزيان وبقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي فيما بعد. وفي سوس، وبالرغم من تواطؤ القياد الكبار مع الاحتلال، قاد الشيخ أحمد الهيبة القبائل الصحراوية والسوسية للمقاومة والجهاد، وفي مرحلة من مراحل المقاومة شكل واد نون وأيت باعمران ولاخصاص المثلث الحيوي للمقاومة¹⁴، وفي تافيلالت سجلت قبائل المنطقة ملاحم خالدة في المقاومة، كان من آخرها معارك صاغرو بجبل بوگافر ومعارك جبل بادو وحمدون¹⁵، وغيرها من المقاومات في كل المناطق ولدى مختلف القبائل، إلى درجة أن الجنرال اوغوستين غيوم Augustin Guillaume اعترف بأنه "لم تأت لنا أي قبيلة بطريقة عفوية، ولم تخضع أي قبيلة دون أن تحارب، وأحيانا دون أن تستنفذ وسائل المقاومة عن آخرها"¹⁶، وهذا يذكرنا بعبارة المجاهد عبد الله زاگور، قائد مقاومة أيت عبد الله بالأطلس الصغير: "إتّما لقرطاص إتّما واوال" بمعنى نفذ الرصاص ونفذ معه الكلام، التي قالها سنة 1934

¹¹ قد تكون تجربة الدولة البرغواطية في القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد)، ودعوة حاميم الغماري (توفي 315هـ / 927 م) نماذج دالة في هذا الباب والتي تحتاج إلى دراسات وقراءات جديدة.

¹² أحمد جبرون، "جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى من منظور تاريخي"، ضمن *اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية*، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2013، ص 54. 54.

¹³ محمد القبلي (إشراف وتقديم)، تاريخ المغرب، تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، ط1، 2011، ص 699.

¹⁴ أحمد بومزكو، "الجهاد والمقاومة بسوس، 1912-1927"، ضمن *تاريخ الاستعمار والمقاومة بالبادية المغربية خلال القرن العشرين*، تنسيق المحفوظ أسمر، إعداد علي بنطال، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية 2010، ص 64.

¹⁵ محمد بوكبوط، "المقاومة ببادية تافيلالت، 1900-1934"، المرجع نفسه، ص 35.

¹⁶ محمد القبلي (إشراف وتقديم)، تاريخ المغرب، تحيين وتركيب، مرجع سابق، ص 534.

عندما أُلقي عليه القبض بعد انهزام المقاومين أمام المحتلين الفرنسيين الذين استعملوا الطائرات الحربية لحسم المعركة¹⁷. بالرغم من هذه الملاحم التي سطرته القبائل الأمازيغية؛ فإن ظروف المرحلة وتحولاتها "لم تسمح بتبلور إيديولوجية أمازيغية مستمدة من المقاومة ضد المستعمر"¹⁸.

وفي السنوات الموالية أصدرت سلطات الحماية ظهير 16 ماي 1930 لتنظيم القضاء العرفي، وقامت بعض النخب المدنية بنأويل مضامينه بشكل مغرض في عدة مدن وخاصة سلا وفاس، وألصقت به تسمية الظهير البربري، وهي تسمية ذات صبغة عنصرية ثم استعمالها من أجل الهيمنة وفرض إيديولوجية معينة¹⁹. وهكذا تضرر الأمازيغ والأمازيغية مرة أخرى؛ الشيء الذي لم يسمح بظهور أي تيار يطرح الأمازيغية باعتبارها مرجعية فكرية للنضال من أجل الاستقلال داخل الحركة الوطنية²⁰.

واستمرت تداعيات تأثير استغلال هذا الظهير طويلا ضد الأمازيغ وعلى وضع الأمازيغية؛ ولذلك "فإن العناية بالأمازيغية قد اعتبرت غداة الاستقلال ضربا من ضروب تكريس سياسة المستعمر الرامية إلى التفرقة، مما يتنافى مع هدف التوحيد في إطار دولة وطنية تعتبر وحدة اللغة من مقوماتها الأساسية"²¹.

بسبب هذه الظروف لم ينشأ الوعي الأمازيغي الحديث بالذات وبالهوية إلا في الستينيات، وتعتبر سنة 1967 التي تأسست فيها أول جمعية "أمازيغية" باسم الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي بداية تشكل الوعي الأمازيغي الحديث بشكل جماعي وتنظيمي؛ وذلك نتيجة لمختلف التحولات التي عرفها المغرب منذ حقبة الحماية، خصوصا تلك المتصلة بنمط الحياة ككل، وبالهجرة نحو المدن بسبب تفكك بنايات الإنتاج في القبيلة، وانتشار التعليم العصري ومن تم الاتصال باللغات الأجنبية وبالمعارف العصرية في مختلف العلوم، وانتشار وسائل اتصال وتواصل جديدة مثل الصحافة والمذيعات...

لكن سقف الوعي في هذه المرحلة قد لا يتجاوز التفكير والنقاش الجماعيين، والتجاوب مع الإشكالات المترتبة عن التحولات الجديدة التي فرضت نفسها بحدّة. أما الانطلاقة القوية فستكون في السبعينيات، بالرغم من أن إيديولوجية القومية العربية ما تزال متحكمة، وعرفت هذه الفترة غليانا فكريا حاول فيه المفكرين المغاربة، كل

¹⁷ محمد مستاوي، "المجاهد المنسي عبد الله زاكور"، مجلة *تاوسنا*، العدد الأول، يناير 1995، ص 62-65.

¹⁸ الحسين بويغقوبي، المسألة الأمازيغية في المغرب والجزائر، الجذور والرهانات خلال قرنين ونصف، سوس للطباعة، أكادير، ط2، 2019، ص 71.

¹⁹ محمد منيب، الظهير البربري أكبر أكذوبة سياسية في المغرب المعاصر، حوار أجراه موحا مخلص، منشورات مؤسسة تاوالت. (2020-11-30)

²⁰ الحسين بويغقوبي، المسألة الأمازيغية في المغرب والجزائر، مرجع سابق، ص 57.

²¹ محمد القبلي (إشراف وتقديم)، تاريخ المغرب، تحيين وتركيب، مرجع سابق، ص 700.

حسب ميدانه أن ينفتحوا على الفكر الماركسي، لأنه من التيارات الفكرية الرائجة²². وفي أواخر هذه الحقبة تعزز المشهد بتأسيس جمعيات أمازيغية أخرى (تامايوت في سنة 1978، والجامعة الصيفية سنة 1979 على سبيل المثال)، وفي هذه الفترة أيضا ظهرت مجموعات فنية غنائية (اوسمان، أنزارن...) وخرجت عدة أبحاث ودراسات علمية لكتاب أمازيغ ممن تخرجوا أو وصلوا لدرجات عليا في مسارهم الجامعي، بعضها يناقش قضايا تتصل بوضعية اللغات الشفوية ومنها الأمازيغية، ومكانتها على ضوء مفاهيم اللسانيات الحديثة، وبعضها يتناول الآداب والنصوص الشفوية وتدوين الموروث، وفي هذه الحقبة أيضا كتبت أوائل الكتابات الأدبية الإبداعية الأمازيغية في الشعر والقصة وهي "من صميم الوعي التعبوي العصري"²³.

وفي حقبة الثمانينيات لم يعد طرح الأمازيغية يثير الشكوك فقط ويواجه بالاتهامات بل يتبعه العقاب؛ فاعتقل علي صدقي أزيكو في أوائل يونيو من سنة 1982 وحوكم بتهمة المس بالأمن العام والوحدة الوطنية بسبب مقال كتبه، وفي أواخر الشهر نفسه أزلت الشرطة لوحة مكتوبة بتيفيناغ تشير إلى مكتب المحامي حسن إد بلقاسم، كاتب المجموع القصصية موضوع هذا التحليل، واعتقل لمدة أسبوع²⁴. في هذه الظروف المشحونة كان مخاض الكتابة القصصية، وراندها حسن إد بلقاسم هو أحد الفاعلين في هذه الصيرورة؛ لذلك لا غرابة أن نجد هموم الذات تتفاعل في نصوصها مع هموم الموضوع، وكانت هذه الظروف والتحويلات بنجاحاتها وإخفاقاتها، بأحلامها وعذاباتها هو العالم الذي تمتع منه والهواء الذي تنفسه.

أهداف الكتابة

ارتباطا بالسياق التاريخي والاجتماعي للميلاد والنشأة، يبدو أن الكتابة القصصية والكتابة الأدبية بشكل عام لم تكن هدفا في حد ذاتها، فهي من نتاج الوعي الأمازيغي الحديث، وبمثابة معادله الفني والجمالي، وهذا ما يجعلها، في المقام الأول، وسيلة للنضال والتنقيب والتوعية، ولذلك فلا غرابة أن نجد طرح موضوع الهوية، ولو في أبعاده الدنيا المرتبطة فقط باختيار الكتابة باللغة الأمازيغية، هو القاسم المشترك الأكبر بين الفعل النضالي (الاحتجاجي والحقوقى والثقافي) وبين الكتابة الأدبية، بل نجد في أغلب الحالات أن الفاعل الأمازيغي، سياسيا كان أو حقوقيا أو جمعويا، هو نفسه الكاتب والمبدع. وفي هذا السياق يقول محمد أكوناض، وهو من الرواد المؤسسين للكتابة السردية باللغة الأمازيغية، متحدثا عن تجربته في الكتابة: "أسميت الكتابات الأولى التي كتبت في هذه المرحلة [نهاية الثمانينيات] بكتابة التحدي، كان الهدف إقناع الخصوم بأن الأمازيغية قادرة على حمل المعرفة وأنها لغة مستقلة تتوفر

²² نفسه ص 691.

²³ الحسين وعزي، نشأة الحركة الثقافية الأمازيغية بالمغرب، تحليل سيروية تحول الوعي بالهوية الأمازيغية من الوعي التقليدي إلى الوعي العصري، مرجع سابق، ص 142.

²⁴ نفسه، ص 173.

على كل مقومات اللغة من قاموس خاص، ونحو وصرف وأن لها تاريخا مجيدا ولكن مسكوتا عنه أو بالأحرى معتقلا²⁵.

يُفصح هذا القول عن دوافع الكتابة وغاياتها، فمحرك فعل الكتابة هو التحدي، أما الهدف فهو إقناع الآخر/ الخصم بأن اللغة الأمازيغية قادرة على الإنتاج المكتوب مثلها مثل اللغات الأخرى التي تكتب بها المعارف وتنتج بها الآداب.

والاستنتاج نفسه يستخلصه القارئ وبدون عناء من خلال مجموعة "إماراين" imarayn التي دشنت الكتابة ضمن هذا الجنس الأدبي، وينكشف هذا الرهان النصالي انطلاقا من خطاب عتبات المجموعة أو نصوصها الموازية قبل بدء القراءة والتعرف على التيمات والقضايا التي تتناولها القصص. فإذا تجاوزنا عتبة العنوان المرتبط معجميا بحقل الحب والعاطفة والعشق، ويعطي الانطباع منذ الوهلة الأولى عن العالم القصصي التي تتحرك فيه نصوص المجموعة؛ إلا أن الحب في المجموعة لا ينفصل بدوره عن النضال خصوصا في فترة الجامعة؛ ولا يفترق عن الآلام والمعاناة وتجارب الاعتقال. إذا تجاوزنا عتبة العنوان هاته، نجد الهاجس النصالي الحقوقي يخيم على كل عتبات المجموعة ونصوصها الموازية. ورد في الصفحة الثالثة النص الآتي: "إن الثقافة، وهي صنع البشر جميعا وتراث مشترك للإنسانية، والتربية بأوسع معانيها، تقدمان للرجال والنساء وسائل للتكيف متزايدة أبدا، لا تتيح لهم فقط أن يؤكدوا أنهم يولدون متساوين في الكرامة والحقوق، بل أيضا أن يدركوا أن عليهم واجب احترام حق الجماعات البشرية كافة في التمتع بذاتيتها الثقافية وفي تنمية حياتها الثقافية الخاصة بها في الإطارين الوطني والدولي، على أن يكون مفهوما أن لكل جماعة أن تقرر بنفسها بملء حريتها أن تصون القيم التي تعتبرها من المقومات الأساسية لذاتيتها، وأن تتولى عند الاقتضاء مواءمة تلك القيم أو إثراءها".

هذا النص الذي اختاره حسن إد بلقاسم عتبة لمجموعته القصصية ينتمي إلى مجال حقوق الإنسان، ويمثل المادة الخامسة من إعلان المؤتمر العام للأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة في 27 نونبر 1978، وينص على أهمية الثقافة بالنسبة للجماعات البشرية وحق هذه الجماعات في الحفاظ على مقومات ذاتيتها وهويتها وتنميتها.

وفي الغلاف الخلفي ورد النص الآتي:

- 1- ينتمي البشر جميعا إلى نوع واحد وينحدرون من أصل مشترك واحد. وهم يولدون متساوين في الكرامة والحقوق ويشكلون جميعا جزءا لا يتجزأ من الإنسانية...
- 2- لا تؤثر وحدة الأصل، على أي وجه، في كون البشر يستطيعون ويحق لهم أن يتغايروا في أساليب العيش، كما لا تحول دون وجود فروق بينهم مصدرها تنوع الثقافات والظروف البيئية والتاريخية، ولا دون حقهم في الحفاظ على هويتهم الثقافية.

²⁵ محمد أكوناض، "تجربتي في الكتابة بالأمازيغية"، ضمن *الأدب الأمازيغي الحديث*، منشورات فريق البحث في الثقافة واللغة الأمازيغية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، إعداد وتقديم عبد العالي تلمنصور، مطبعة سوس، ط 2016، ص 17.

هذا النص ينتمي هو الآخر للمرجعية الحقوقية نفسها، فهو مقتطف من القانون السابق في مادته الأولى، ويؤكد على مبدأ المساواة، وعلى أن الأصل المشترك للبشر جميعا لا يؤثر على التعدد ولا يلغي الحق في الحفاظ على الهوية الثقافية للجماعات. قد يعترض معترض أو يقول قائل بأن مضمون نصوص هذه العتبات وطبيعتها ينسجم، إلى حد كبير، مع الظروف العامة التي كانت سائدة في الفترة التي نشرت فيها هذه القصص والفترات التي سبقتها، واقع الإقصاء الذي تعرضت له الأمازيغية، لغة وثقافة وهوية، ولحق بحاملها ومجالات انتشارها. والذي وصل في عقد الثمانينيات إلى القمع والاعتقالات والمحاكمات²⁶. هذا صحيح، لا نختلف فيه ولكن لا ينبغي أن نتغاضى عن حقيقة أساسية وهي أن الأدب والخطاب الأدبي والقصصي له خصوصياته المرتبطة بطبيعته التخيلية، ويفترض في عتبات العمل الأدبي أن تعكس هذه الخصوصيات وأن يتحقق فيها الانسجام، وهذا لا يعني مصادررة حق الكاتب المبدع، ولا إبعاد السياسة عن الأدب، وإنما غايتنا أن نبين الحثثيات المحيطة بأول عمل قصصي أمازيغي، وبالرهانات الكبرى للقصاصين الرواد. وفي عتبة الإهداء التي لا تقل أهمية عن العتبات النصية الأخرى، والتي يعتبرها النقد الحديث جزءا دالا من نص العمل، نجد ما يلي: "تارزيفت: ريف تادمين أد أد كينت تارزيفت إإنماغن ف تاوماتكيت د تدرفيت د تديموقراطيت غ كرا إكات تاسكا غ تيميزار ن تونيت تيس كراط"، وترجمها الكاتب نفسه: "هدية: أقدم هذه القصص إلى كل الذين يناضلون من أجل الهوية والحرية والديموقراطية في كل جهة من بلاد العالم الثالث".

إن الإهداء يعد أمرا ذاتيا شخصيا ومساحة خاصة بالكاتب، ويمكن أن يكون مفصولا تماما عن مضمون العمل وعن قضاياها؛ لذلك نجد الكتاب يقدمون إهداءاتهم عادة إلى أفراد عائلاتهم أو إلى بعض أصدقائهم، أو إلى من ساعدهم، بشكل من الأشكال، في إنجاز العمل موضوع الإهداء، أو إلى من أثر فيهم وترك بصمة في حياتهم وفكرهم؛ لكن إد بلقاسم اختار أن يخرق العرف وأن يسلك منحى آخر في الإهداء من خلال تخصيصه للمناضلين من أجل الهوية والحرية والديموقراطية. ويكشف هذا الإهداء، بهذه الصيغة، من جهة، عن جرأة الكاتب؛ لا سيما إذا استحضرنا مرحلته التاريخية، والتي تقترن في السياق المغربي بما عرف سياسيا وإعلاميا بسنوات الجمر والرصاص، وتكشف، من جهة أخرى، عن رغبة الكاتب في توجيه القارئ إلى الهموم والقضايا الجوهرية التي تسكن قصص المجموعة، وتهيئته ذهنيا ونفسيا وعدم كسر أفق انتظاره.

التيماات والقضايا

صدرت المجموعة القصصية "إمارين" لحسن إد بلقاسم عن مطبعة المعارف الجديدة بالرباط في طبعها الأولى سنة 1988، وتتكون من أربعة وثمانين صفحة من

²⁶ الحسين بويقوبي، المسألة الأمازيغية في المغرب والجزائر، مرجع سابق، ص125.

الحجم الصغير وتضم تسع قصص هي: "أغبور"، و"تيكي أو هو"، و"دمين ن تيهيا د بومليك"، و"كيي أيگان تيدرفيت إنو"، و"تامغران ووشن"، و"تامارايت، و"أزگاغ"، و"تاووغت" و"أگفاي إ تاروا نو". بالإضافة إلى معجم أمازيغي عربي في خمس صفحات يعطي مرادفات لبعض الكلمات الواردة في نصوص المجموعة باللغة العربية. أطول هذه القصص هي "كيي أيگان تيدرفيت إنو" في ثلاثة عشر صفحة، وأقصرها "تيكي أو هو" في ثلاث صفحات.

إن تنوع هذه العناوين واختلاف طبيعتها لا يتيح ربطها بالدلالات العامة أو القضايا التي تعالجها قصص المجموعة ولو بشكل ضمني وافتراضي؛ فبعض هذه العناوين ينتمي معجميا، كليا أو جزئيا، إلى حقل الحيوانات والطيور (القصص رقم 1 و 5 و 8)، وبعضها يحمل أسماء أعلام (القصة رقم 3)، وأخرى تحيل، ولو بشكل غير مباشر، على ما هو اجتماعي (القصة الثانية والتاسعة)، وعنوان القصة السادسة (تامارايت) هو الوحيد الذي يتجاوب مع عنوان المجموعة ككل.

القضايا الاجتماعية

الأدب بشكل عام والأدب السردي بشكل خاص يتفاعل مع واقعه الاجتماعي، بالتقاط تناقضاته وتناول قضاياها ومعالجة ظواهره؛ والمجموعة قيد التحليل تسير في هذا الاتجاه، وتأتي القصة الأولى "أغبور"، والثانية "تيكي أو هو" والأخيرة "أگفاي إ تاروا نو" في طليعة القصص التي تناولت الظواهر الاجتماعية في الواقع المغربي في الزمن الذي كتبت فيه. فالقصة الأولى تختزل معاناة النساء الأرامل اللواتي فقدن أزواجهن في حروب المقاومة وهم يدافعون عن الوطن ضد المحتلين الفرنسيين، تاركين لهن أطفالا صغارا يتوجب عليهن إعالتهم ورعاتهم وتنشئتهم لأن الوطن تنكر لهن، وهي تحكي عن سيدة مكافحة تكلفت بتنشئة ابنها "حمو" و"تلا أيتماس" وأحفادها فيما بعد؛ لأن أباهم هاجر إلى المدينة (أكادير) من أجل البحث عن العمل. بدأت معاناتها منذ توفي زوجها في معارك المقاومة بقيادة أنفلوس ("زغ ليغ إموت وركاز نس غ تاماغت ن وNFLوس د إرومين" ص 6). ومحمد أنفلوس هو زعيم ومقاوم حامي تصدى للاحتلال الفرنسي في بداية زحفه نحو الجنوب وخصوصا مع بداية احتلال مدينة موگادور (الصويرة)؛ حيث ظهرت أسرة إنفلاس بتنسيق مع أسرة إداوگيلول لتعلن المقاومة ضد المحتل الفرنسي²⁷. خرجت هذه السيدة، كعادتها كل صباح، متجهة نحو الجبل من أجل صيد السناجب لتوفير وجبة لأبنائها، وفي طريقها تتذكر أحداث السنة التي خربت فيها الأمطار الديار فاضطرت للهروب بأبنائها والصعود للجبل والسكن داخل غار، وتذكرت أيضا بكثير من الأسى أحداث سنة أخرى انقطع فيها المطر وعم الجفاف والأمراض؛ فماتت الماشية وانقضى كل ما يملكه الناس، وبقيت منتجات شجرة أركان الوحيدة التي استتجد بها أهل البلدة في ذلك

²⁷ محمد اوبيهي، "مقاومة إلاحان للاحتلال الفرنسي وأحداث دار لوزا"، مجلة ليكسوس، العدد 04 فبراير 2016، ص 64.

العام ("أسگاس أن أرگان واحدوت أد پیوي ربّي إ آیت تمازیرت" ص6)؛ لذلك تعمل هذه السيدة بالليل والنهار من أجل استخلاص زيت أرگان والذهاب لبيعه في السوق غير مبالية بكل ما يقال عن تسوقها، لأنها امرأة، لكن ما يؤلمها هو أن رجال المخزن المكلفين بالسوق يأخذون منها أربع ريالات يسمونها الصنك (ضريبة) ولا حيلة لها ولا قوة للرفض. وما زاد من معاناتها أن ابنتها "تلا أیتماس" أصابها المرض وبقيت طريحة الفراش لمدة ولا وجود لمستشفى بالدوار.

كبر أبناء هذه السيدة المكافحة. تزوجت "تلا أیتماس"، وأصبح لابنها "حمو" أبناء. اضطر للهجرة لمدينة أكادير للبحث عن العمل وترك أمر إعالتهم لأمه؛ فبدأت سلسلة أخرى من الشقاء والمعاناة مع الأحفاد هذه المرة، وكان شينا لم يتغير بين الأمس اليوم. فما أشبه الليلة بالبارحة كما يقال ("زود إضگام زود غاضاد. وآخا فتان إرومیین وُر إبودل وُمیا" ص8). تمكنت هذه السيدة من اصطیاد السنجاب، واتجهت صوب المسجد طالبة من الفقيه أن يذبحه، لأن المرأة كما يقولون لا يجوز لها ذلك، لكن السنجاب أفلت من يد الفقيه وهرب مما عجل بخصام بين تلك المرأة وبين الفقيه. والملاحظ أن القاص لم يذكر نهائيا اسم بطلة القصة ولا نعرف عنها غير كونها امرأة عجوز ومكافحة، وقد تعتمد ذلك في نظرنا لكي تكون رمزا لمثيلاتها ونموذجا مجسدا للأسر التي فقدت معيها إبان معارك المقاومة، واكتوت بنار المعاناة وذاقَت مرارة العيش بعد الاستقلال.

وفي القصة الثانية (تيگي اوهو) وهي أقصر نصوص المجموعة نجد معالجة ساخرة لظاهرة الرشوة التي انتشرت بشكل سرطاني في المجتمع ("إنا تربت أد تید تسکرت تخاصاک تيگي... غوان ف إن نگیّت أر إسیگیل تيگي" ص13)، لكن الحديث لا يتعلق بالمجتمع في زمن كتابة القصة، بل في الزمن الذي حكم فيه القیاد وسيطروا على المجتمعات المحلية، وهذا ما تنشي به العبارة الأولى التي تبدأ بها القصة (إکاتین یان وُققیر..)، والتي تذكرنا بالعبارات التي تفتتح بها الحكاية الشعبية الأمازيغية، وبعد هذه العبارة يأتي التصريح بالزمن التاريخي لوقوع أحداث القصة/الحكاية: (إسول غ وُزمز لي إحکم لقاید سعاید²⁸ وُتگزیرین غ إاحان).

في ذلك الزمن فكر "أفقیر حماد ن إد بارود" (وهو البطل والشخصية الفاعلة في القصة) في وسيلة لإقناع الناس برفض الرشوة والوقوف ضدها، فالتجأ للحيلة وأخبر الناس بأنه يفقه صياح الديك، هذا الأخير يقول: "تيگي وُهو" أي لا للرشوة وليس "كوكوهو" المعروفة، ومنذ ذلك الوقت توقف الناس عن تقديم الرشاوى، بارادتهم على الأقل، وكل من يطلب منهم ذلك يذكرونه بما يصيح به الديك. اعتقل "حماد ند

²⁸ هو القائد سعيد بن أحمد الحاحي الكيلولي، عينه السلطان الحسن الأول بظهير شريف، وبعد وفاة الحسن الأول عينه الوزير أحمد بن موسى الوصي على السلطان المولى عبد العزيز قائدا على قبائل حاحا وقبائل سوس وكلفه بإخضاعها، فزحف على سوس عام 1896/1314، واستقر بتزنيت عاصمتها يومئذ، ولم ينسحب منها إلا عام 1900/1318، وتوفي عام 1901/1319. (ينظر: معلمة المغرب، ج 20، ص6869).

بارود" بعد أن فضحه الوشاة ووضعه القائد سعيد وسط طين بقعر مطفية بمنطقة تمانار، وبقي خمسة أيام بدون أكل وشرب، وهي مدة كافية ليفكر في حيلة أخرى ينجو بها من عذاب أشد، فقال للقائد: ("هان أسيدي لقائد أوال وُر سول إگي وين إفولوسن؟ هاتي أوال غيلاد إگا وين تفولوسين؟ ... أر تينيننت: تيگي تيگي تيگي" ص 15) بمعنى أن الكلام/ الرأي الآن لم يعد كلام/ رأي الديكة بل الرأي رأي الدجاجات وهن يقلن: تيگي تيگي تيگي أي الرشوة الرشوة الرشوة. فضحك القائد وأطلق سراحه.

وفي القصة التاسعة "أگفای إ تاروا نو" نجد قضية اجتماعية أخرى جد معقدة، لا يكاد يخلو منها مجتمع من المجتمعات المعاصرة، بشكل من الأشكال؛ يتعلق الأمر بظاهرة التسول. تتلخص أحداث القصة في جلوس شخص في أحد المقاهي يحتسي الشاي فإذا بأحد المتسولين يمد له يده طالبا منه مالا يشتري به الحليب لأبنائه. بعد تذكر سريع لما وقع له بتارودانت مع إحدى المتسولات المحترفات، ومع آخر يحترف التسول في الحافلات بين الدار البيضاء والرباط، وقصة متسول آخر يملك عدة منازل بعدة مدن، وبعد حوار قصير مع ذلك الشخص المتسول رفض طلبه؛ لكن لما تذكر ما وقع له هو نفسه بالدار البيضاء واضطراره طلب درهمين لاستكمال ثمن تذكرة القطار ندم على رد طلب ذلك الشخص / المتسول وخرج مسرعا يقتفي أثره لكن دون جدوى؛ فقد ابتعد عن المقهى وغاب تماما.

هكذا يتناول هذا النص هذه الظاهرة باعتبارها معضلة متشابكة وتخفي العديد من الوجوه الأخرى، إلى درجة أن بطل القصة لم يستطع أن يحسم في حقيقة الشخص الذي طلب منه ما طلب. هل هو شخص لا يحترف التسول ولكنه في حاجة للمساعدة في تلك اللحظة، أو انه متسول محترف بارع في صنع المبررات من أجل الحصول على مبتغاه.

القضايا السياسية

يصعب تصور الإبداع الأدبي والقصصي وقراءته بفصله كلياً عن واقعه المجتمعي والسياسي، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو كيف تفاعلت الكتابة القصصية الأمازيغية في بداياتها، كما تجلت عند حسن إد بلقاسم، مع الواقع السياسي وأحداثه وتحولاته وخصوصاً في مرحلة السبعينيات والثمانينيات التي كتبت فيها نصوص مجموعة "إمارين"؟

لمحاولة الإجابة عن هذا السؤال نعود مرة أخرى لقصص المجموعة ولقضاياها المتناولة. باستثناء قصة "دمين ن تيهيا د بومليك" التي تبدو أنها حكاية، ويتضح ذلك انطلاقاً من عنوانها الذي وردت فيه لفظة "دمين" بمعنى حكاية، وانطلاقاً من بدايتها التي لا تبتعد عن طبيعة عتبات افتتاح الحكاية (إگاتين)، فإن كل قصص المجموعة تحضر فيها الهموم السياسية بشكل من الأشكال. تحضر من خلال تجارب القمع والاعتقال والتعذيب، أو من خلال طرح أفكار ونقاشات حول الثورة والصراع الطبقي ودور العمال في التغيير.

ففي قصة "كَيِّي أَيْكَان تيدرفيت إنو"، التي يمكن اعتبارها قصة حب بين "إملاس" و"تاماسينت"، شابين من الأطلس، التقيا في المرحلة الجامعية بكلية الآداب سنة 1972. هو يتابع دراسته في تخصص الأدب العربي، وهي في تخصص الأدب الفرنسي؛ لكنهما درسا معا الأفكار الكبرى حول صراع الإنسان مع الطبيعة من أجل البقاء، وصراع الطبقات الذي يحرك المجتمعات البشرية؛ ولذلك كما جمعهما الحب ومقاعد الدراسة جمعهما الإيمان بالأفكار الثورية وبالمساواة بين الناس جميعا دون ميز لأي سبب من الأسباب (مَاقارن. وْمَن س س س س إسوينغيم ن تگراولا د تنگادایت نگر میدن کولوتن بلا کرا ن ناحیا. ص 30) (مُون غ تايري، مُون غ تيغري، مُون غ إسوينغيم ن تگراولا د تنگادایت د وفولكي إ ميد کولوتن. ص 33).

وفي سنة 1979 اعتقل "إملاس" مع مجموعة من الأساتذة النقابيين الذين نظموا إضرابا؛ وحُكم عليهم بسنة سجن. انخرطت "تاماسينت"، إلى جانب زوجات المعتقلين، في جمعية حقوق الإنسان للدفاع عن زوجها واستئناف الحكم لتخفيفه لكن دون أن يتحقق ذلك، وعانت خلال تلك السنة معاناة قاسية، واستمرت تلك المعاناة، خصوصا المادية منها، بعد خروج زوجها من السجن؛ لأنه لم يُسمح له بالرجوع لوظيفته، ونظرا لصعوبة إيجاد عمل آخر لأن التضيق عليه ما يزال مستمرا بسبب نشاطه السياسي. وهكذا استمرت معاناتهما وبدأت علاقتهما تسوء وتعرض حبهما للاهتزاز. وفي منتصف ليلة الواحد والعشرين من يناير 1984 اعتقل البوليس "إملاس" مرة أخرى، وحُكم عليه بعشر سنوات سجن، فزادت المعاناة واشتد العذاب. والأجواء نفسها المرتبطة بالاحتجاجات والاعتقالات والقهر بكل أصنافه نجدها في قصة "تامغران وشن"، وتحكي عن إضرابات بداية السنوات الثمانين، فبعد توالي سنوات الجفاف قلَّت المواد الغذائية وانتشرت الأمراض وعم الغلاء فخرج الناس للشوارع للتعبير عن غضبهم واستيائهم؛ وكانت نتيجة هذه الاحتجاجات سقوط العديد من الضحايا من قتلى وجرحى ومعتقلين ومخطوفين (إتْرَزَا كرا، إِبُوْقِي كرا، إموت كرا. تيمراوين ن إسگاسن أسد فَعْن مِيدَن غ لماحكما. وُر تَلِي يات توجا غ وُر إفل وِسگاس اُنْ تاکنسا وُر إلين أسافار. ص 47).

اعتقل "يوفتن گ تيسلا" في بيته ليلا بعد أسبوع فقط من زواجه، على الرغم من أنه لم يشارك في الاحتجاجات. وهو المتخرج حديثا (1982) مهندسا للمياه والغابات وعين للاشتغال بمدينة الرباط، وبعد اعتقاله دونوا له المحضر التالي: (يوفتن گ تيسلا إويس ن تلا أيتماس، إلول غ إحاحان إسگاس 1953. إطيماز ياد ف ليضراب غ لجاميعا. إگا يان غ زغ ويْلِي زوارنين إ ميدَن غ تسواك. "إغرات، إسر س فلاس إكمز نَس" ص 57) (يوفتن گ تيسلا ابن تلا أيتماس، ولد بإحاحان عام 1953. قبض عليه سابقا في إضرابات الجامعة. هو واحد من الذين يتقدمون الناس في الشوارع. "قرأه وبصم عليه").

وفي صفحات القصة نتعرف على محطات من حياة "يوفتن" ومساره، فقد توفي أبوه في عمر مبكر في معارك المقاومة ضد المحتل وهو ما يزال في بطن أمه "تلا

أيتماس"، وهي التي سمته بهذا الاسم وهاجرت بسببه إلى الدار البيضاء، وهو لم يتجاوز ثلاث سنوات، واشتغلت بأحد المصانع لكي توفر له كل ما يحتاجه حتى كبر وتدرج في مسالك الدراسة والتكوين إلى أن تخرج والتحق بالعمل في ميدان الهندسة. وكان حلمها أن تعود برفقته لزيارة مسقط رأسه بلديتها "تاسيلا"، لكن حلمها لم يكتمل فقد أصيبت بالخليل بعد اعتقاله والحكم عليه باثنتي عشرة سنة سجنًا.

والموضوع نفسه تعالجه قصة "تامارايت"، وهي كلها عبارة عن حوار بين فتاة وبين شخص يشتغل إما حارسًا أو موظفًا في السجن، بحسب ما يفهم من سياق الحوار الذي دار حول كيفية الزواج بسجين وكتابة عقد الزواج، ذلك أن الفتاة التي تقمصت في البداية دور صديقتها اعتقل حبيبها الذي تعرفت عليه منذ سنوات الجامعة وحكم عليه بعشرين سنة سجنًا، وتريد أن تقترب منه بشكل رسمي بعقد زواج، وهي تشتغل في التعليم وهو كان مهندسًا، فجاءت تسأل موظف السجن عن الكيفية وعن الوثائق.

وتجربة الاعتقال تطرح من جديد في قصة "أزكاغ"، الشخص الذي قضى عشر سنوات في السجن، وفي اليوم ما قبل الأخير لخروجه يتذكر لحظات اعتقاله، فقد اعتقل بتاريخ 26-01-1976 وهو يتأهب لبداية عمله بعد حصوله على دبلوم في الهندسة وفي اليوم الذي خطب فيه "تيليل". اقتحم البوليس منزلهم ليلا بنواحي مدينة الرباط مدججين بالسلاح وزرعوا الرعب والخوف في نفوس الجميع وأتلفوا كل شيء أمامهم قبل أن يعتقلوه. وتصور القصة الترقب والحالة النفسية لهذه الشخصية في اليوم الأخير من العشر سنوات التي قضاها في السجن، ولحظة خروجه واستقباله أمام السجن من طرف خطيبته "تيليل" وعائلته وأصدقائه.

والقصة الأخيرة التي نتوقف عندها هي بعنوان "تاووكت"، وبالرغم من أنها تبدو مختلفة شيئًا ما، إلا أنها لا تبتعد عن الهم السياسي، فهي تتناول المعتقدات الشعبية حول البومة باعتبارها رمزًا للشؤم، وهو ما تشير إليه الحكايات والأحداث المسرودة من طرف كل من "يات تفقيرت" و"يان أفقيير" و"يان وركاز مزين" و"يان أر ياقرا غ ألما"؛ إلا أن طالبا يتابع دراسته بأكادير (يان وفروخ أر ياقرا غ وكادير) يخالف هؤلاء جميعًا، معتبرا كل ما يسرد من مصائب وأحداث بسبب البومة "تاووكت" لا أساس له من الصحة، فهي مجرد أوهام وأفكار ميتة تنتعش في البلدة بسبب النظام الطبقي السائد، فهناك طبقتين متصارعتين، طبقة تملك وسائل الإنتاج، وتملك الثروة والسلطة وطبقة أخرى لا تملك إلا قوة عملها (غايد بيويت إد وكرا ن تسكيوين لي الآن غ تمازيرت. لأنت غ تمازيرت سنوات تسكيوين مقورنين ماغنين: تيسكي لي إطافن ثماسن ن تيافوت. تطاف أيدا، تطاف أوال. طامز تاماسايت غ وفوس نس، د تسكي ور إطافن غار تدواست ن تووري نس. ص74)؛ وأن الطبقة البرجوازية ما كان لها لتتقوى وتهيمن لو أن الناس يعرفون كيف يتصرفون وكيف يوحدون قواهم، وأن بإمكانهم إنجاز ما لا يخطر على البال إذا اتحدوا. وفي اليوم السابع جاء رجال الدرك ومعهم الأمين شيخ القبيلة واعتقل كل الذين حضروا تلك المناقشات.

البناء الفني أو علاقة النص بمرجعه

كان همنّا في العنصرين السابقين هو تقديم لمحة سريعة عن السياق العام الذي نشأت فيه القصة القصيرة الأمازيغية، باعتباره المرجع الذي تتصل به النصوص القصصية، وتتحرك في عوالمه وهو ما عكسته طبيعة التيمات والقضايا التي تناولتها؛ لكن النص القصصي، بقدر اتصاله بمرجعه بقدر انفصاله عنه، لأنه نص لغوي تخيلي في المقام الأول. فكيف تعاملت قصص إد بلقاسم مع القضايا التي سكنتها؟

على مستوى البناء السردي نحس في أحيان كثيرة أن لعبة السرد تنقلت من يد السارد، خصوصاً حينما تغطي الأحداث حيزاً زمنياً طويلاً، يشمل سنوات متباعدة؛ حيث تتشعب الأحداث ونكون أمام عدة قصص داخل النص الواحد، فيعجز السارد عن مواكبة مختلف التطورات والتعامل معها بمهارة وحرفية فنية، وبسبب عجزه وحيرته أمام تدفق الوقائع وتشعبها وتشابكها يلجأ، وبشكل متعسف أحياناً، إلى لملة هذه الخيوط وقطعها وإنهاء القصة، ربما مخافة السقوط في السرد الطويل. وقد انعكس هذا على التشابه الواضح بين أحداث عدة قصص في المجموعة، خصوصاً تلك التي تحكي عن تجارب الاعتقال الممزوجة بتجارب الحب. فقصّة "إمالاس" الذي اعتقل سنة 1984 وحكم عليه بعشر سنوات سجناً وترك رفيقة حياته "تاماسينت" لوحدها تصارع مصاعب الحياة في قصة "كَيّ أَيْكَا تيدرفيت إنو"؛ تتقاطع مع ما وقع لشخصية "يوفتن" في قصة "تامغرا ن وشن"؛ المهندس الذي تعرض بدوره للاعتقال في الفترة نفسها وللأسباب نفسها وحكم عليه باثنتي عشرة سنة سجناً تاركاً خلفه هو الآخر حبيبته ورفيقة عمره لوحدها تصارع قدرها. وطبيعة الوقائع تتكرر مع شخصية "أزكاغ" في القصة التي تحمل اسمه، فهو بدوره مهندس انتزع من أهله ومن خطيبته "تليلا" وحكم عليه هو الآخر بعشر سنوات سجناً. وفي قصة "تامارايت" شخصية تسأل عن كيفية الزواج بحبيبها الموجود في السجن، وهو بدوره مهندس محكوم عليه بعشرين سنة سجناً. وفي هذه القصة نجد القاص وضع الرقم "واحد" في بدايتها دون أن نعرف لماذا لم يثبت بقية الأرقام، وكأنها مشهد مقتطع من إحدى القصص.

هذه الأمثلة هي تجليات لصعوبة استيعاب أحداث واقعية أو متخيلة في أزمنة طويلة وفي أماكن متعددة؛ داخل زمن وحيز قصصي من طبيعته التكتيف والاقتصاد في كل شيء.

ونرجح أن يكون القاص واعياً بهذه المعادلة الصعبة؛ لذلك فقد حاول مجابتهها باستثمار تقنية الحذف وهي "تقنية زمنية تقضي بإسقاط فترة، طويلة أو قصيرة، من زمن القصة وعدم التطرق لما جرى فيها من وقائع وأحداث... وتعتبر وسيلة نموذجية لتسريع السرد عن طريق إلغاء الزمن الميت في القصة والقفز على الأحداث إلى الأمام بأقل إشارة أو بدونها"²⁹. والهدف من الحذف هو طي الزمن الحكائي الذي

²⁹ حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1990، ص 156.

وقعت فيه الأفعال، وتجاوز أحداث ووقائع والقفز على فترات أو اختزالها في مقطع سردي صغير. ونأخذ نموذجا بارزا من قصة "تامغران وشن":

- ألبغت تورو تسم أس يوفتن
 - ويس كراض إسكاسن يوفتن
 - ألبغ لأن سا إسكاسن دار يوفتن تسكشمت إناس أد ياقرا
 - أر زراين إسكاسن
 - ألبغ إزري يوفتن لباك
 - أسكاس إزوارن غ لجاميعا إطيماز يوفتن إملاص غ ليضراب
 - غ 82 إفع إخدم صيفدنت س رباط
 - غ تكيرا ن 83 أيور ن نونبر إتوت يوفتن ف يات تفروخت
 - تزري تمغرا تفولكي باهرا
 - تادكات أن... لوحنين كوز ور إتيسان تيفلوت ن تكمي، كيسان د إسلي إ تسليت
- نس

- سين د مراو ن إسكاسن أس كيزن غ لمحكاما ف يوفتن
"يوفتن" هو الشخصية المركزية في هذه القصة، نتركه في بدايتها صبيبا في الثالثة من عمره، وملتقي به في آخرها وقد أتم دراسته الجامعية في الهندسة والتحق بعمله بالرباط مهندسا للمياه والغابات (1982)، وبعد سنة ثم اعتقاله، وفي محضر الاعتقال نتعرف على سنة ولادته (1953). بين البداية والنهاية إذن فضاء زمني شاسع (ثلاثون سنة)، نجحت القصة في الوقوف عند بعض لحظاته، وحذفت أخرى مكثفية ببعض الإشارات أو الأدوات التي تحدد هذا الحذف، وهكذا يكون جزء من القصة مسكوتا عنه في السرد كله، أو مشارا إليه فقط بعبارات زمنية تدل على موضع الفراغ الحكائي³⁰.

وترتبط هذه الخاصية بخاصية أخرى تتعلق بترتيب هذه الأحداث في السرد، وهو ما يعرف في السرديات الحديثة خصوصا لدى جيرار جينيت بالمفارقات الزمنية وتعني "مقارنة نظام ترتيب الأحداث أو المقاطع الزمنية في الخطاب السردى بنظام تتابع هذه الأحداث أو المقاطع الزمنية نفسها في القصة"³¹.

في عموم قصص المجموعة يتم سرد الأحداث بشكل متسلسل ومنتظم في انسجام مع المسار الزمني لوقوعها المفترض، بل أكثر من ذلك نجدها أحيانا موثقة بتواريخ متسلسلة. والنموذج من قصة "كبي أيگان تيدرفيت إنو": ماقارن أسكاسن 72 (ص30) - غ صيف 74 (ص34) - غ تفسوت 76 (ص35) - غ 1979 (ص38) - يناير 84 (ص44).

³⁰ حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، مرجع سابق، ص 156.

³¹ جيرار جينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2، 1997، ص 47.

إننا أمام سرد إخباري مباشر ومتسلسل لمقتطفات من يوميات "إملاس" و"تاماسينت" بطلي القصة، وهذا ما يؤكد الوجه الواقعي وانتصاره على المطمح التخيلي، ويعزز الهوية التقليدية لهذه التجربة.

وهذه السمة سجلها بعض النقاد الذين درسوا نماذج من الأعمال السردية ذات المرجعية السياسية (تيمة الاعتقال والسجن)، ولاحظوا أن العديد من هذه الأعمال تصير مجرد مذكرات أو شهادة على تجربة الاعتقال السياسي، لأنها لا تولي العناية اللازمة للجوانب الجمالية لبناء العالم النصي³².

ومن تجليات السرد الواقعي، الاجتماعي والسياسي، في صيغته التقليدية في هذه المجموعة استبداد الكاتب بالشخصية، والحضور المهيمن للراوي، وتدخلاته المباشرة من أجل توجيه السرد؛ لأن الراوي، وفق تنظيرات ميشيل بوتور "لا يعتبر ضميراً محضاً، وليس هو الكاتب بذاته، ولكنه يمثل وجهة النظر التي يدعو إليها الكاتب"³³.

لغة النصوص بدورها نجدها وفية لمرجعها، فهي تعتمد بشكل أساس على المعجم المحلي لمنطقة إباحان، ويتضح هذا الأمر في المعجم الملحق بالمجموعة، فباستثناء بعض الألفاظ والتعابير الجديدة التي تنتمي للخطاب السياسي، مثل السياسة (أسيدس)، والنقابة (أنمالو)، والديموقراطية (تاوماتگيت/ تاماگيت)، والصراع الطبقي (تاماغيت ن تسگيوين)، فكلها ألفاظ وتعابير محلية ولا يلجأ لاستعمال تعابير جديدة إلا نادراً. وتتسم لغة النصوص عموماً بالبساطة والسلاسة والتقرير المباشر.

ولعل ما خفف من حدة الواقعية البسيطة ومن التقرير المباشر استثمار القاص لتقنية التذكر بكثافة في أغلب قصص المجموعة، وخلخلة البناء السردى للأحداث، ولو بشكل جزئي، في بعض النصوص (قصة أزگاغ)، وإخفاء الكثير من المعطيات المكونة لهوية الشخصيات والمرتبطة ببطاقتها السيميائية (قصة تامارايت)، واعتماد بعض التقنيات السردية مثل السخرية (نص تيگي أو هو).

³² نستشهد بهذه الملاحظة لعبد الرحمن التمارة التي استنتجها بعد تحليله لمجموعة من الأعمال الروائية التي اتخذت الاعتقال السياسي والسجن مرجعاً لها: (أما الملاحظة الثانية فتهم البناء الفني والجمالي للمرجعية السجنية في تلك النصوص الروائية، حيث تتم أحياناً "التضحية" بالمستوى الجمالي لبناء العالم النصي بمختلف علاماته ومكوناته النصية الدالة، فتصير الرواية مجرد "شهادة" أو "مذكرات" تعيد أو ترصد تجربة الاعتقال السياسي دون عناية بالبناء الفني والجمالي) عبد الرحمن التمارة، مرجعيات بناء النص الروائي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص 396.

³³ ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط3، 1986، ص 65.

خلاصة

حاولت هذه الدراسة تناول بدايات القصة القصيرة في الأدب الأمازيغي كما تجلت في أول مجموعة قصصية منشورة، من خلال التركيز على السياق التاريخي والاجتماعي الذي ولدت فيه، وعلى بعض قضاياها الموضوعية والفنية، ونستخلص من خلال التحليل السابق ما يلي:

- إن ميلاد القصة القصيرة مرتبط بالتحويلات المختلفة التي أفرزت نشأة الوعي الأمازيغي الحديث، وهي أيضا من أبرز الأدلة على هذه التحويلات.

- إن الكتابة القصصية الأمازيغية، والأدبية عموما، في بداياتها بمثابة أداة ايديولوجية ووسيلة للنضال والتحدي؛ ولم تكن هدفا في حد ذاتها.

- نسجت نصوص مجموعة "إماراين" قضاياها من مرجعيات واقعية، تاريخية واجتماعية وسياسية، مما تختزن ذاكرة السارد، ومما كابنته الشخصيات من محن وأزمات، وكانت شاهدة على تحولات المجتمع المغربي وعلى الصراع السياسي والفكري في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي. ولم تطرح المسألة الأمازيغية ضمن موضوعاتها، بشكل صريح، من قريب أو بعيد.

- هيمن الاهتمام بالمضمون وبالتسجيل التقريرية المباشر للأحداث والوقائع، وعدم الانشغال كثيرا بالمستويات الجمالية للبناء الفني والسرد للنصوص، ويترجم هذا إحدى الصعوبات والمشاق التي صاحبت تجربة البدايات.

المصادر والمراجع

المصدر

إيد بلقاسم حسن، إماراين، مجموعة قصصية أمازيغية، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، ط 1988.

المراجع

أكوناض محمد، "تجربتي في الكتابة بالأمازيغية"، ضمن الأدب الأمازيغي الحديث، أعمال الندوة الوطنية المنظمة يومي 21 و 22 دجنبر 2011 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، منشورات فريق البحث في الثقافة واللغة الأمازيغية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، إعداد وتقديم عبد العالي تلمنصور، مطبعة سوس، ط 2016. ص 15-20.

أزروال فواد، الأدب الأمازيغي المعاصر بالمغرب، مظاهره وقضاياها، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط 2015. أوبيهي محمد، "مقاومة إباحان للاحتلال الفرنسي وأحداث دار لوضا"، مجلة ليكسوس، العدد 04 فبراير 2016، صص 61-70.

أيت الحاج محند، مادة "الكيلولي"، موسوعة معلمة المغرب، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، سلا، ط 1991، ج 20. بحراوي حسن، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1990.

بوتور ميشال، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط 3، 1986.

بوكبوط محمد، "المقاومة ببادية تافيلالت، 1900-1934"، ضمن تاريخ الاستعمار والمقاومة بالبادية المغربية خلال القرن العشرين، تنسيق: المحفوظ أسمر، إعداد علي بنطال، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية 2010، صص 29-35.

بومزكو أحمد، "الجهاد والمقاومة بسوس، 1912-1927"، ضمن تاريخ الاستعمار والمقاومة بالبادية المغربية خلال القرن العشرين، تنسيق: المحفوظ أسمر، إعداد علي بنطال، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية 2010، صص 57-78.

بوعقوبي الحسين، المسألة الأمازيغية في المغرب والجزائر، الجذور والرهانات خلال قرنين ونصف، سوس للطباعة، أكادير، ط 2، 2019. التمارة عبد الرحمن، مرجعيات بناء النص الروائي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط 1، 2013.

جبرون امحمد، "جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى من منظور تاريخي"، ضمن اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات تاريخية وثقافية

وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2013، صص 49-115.

جنيت جبرار، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2، 1997. المنادي أحمد، الشعر الأمازيغي الحديث، دراسة في تجربة التأسيس، مطبعة دار السلام، الرباط، ط1، 2018. مستاوي محمد، "المجاهد المنسي عبد الله زاكور"، مجلة *تاوسنا*، العدد الأول، يناير 1995.

منيب محمد، الظهير البربري أكبر أكذوبة سياسية في المغرب المعاصر، حوار أجراه موحا مخلص، منشورات مؤسسة تاوالت العوفي نجيب، مقاربة الواقع في القصة القصيرة المغربية، من التأسيس إلى التجنيس، المركز الثقافي العربي، ط1، 1987. القبلي محمد (إشراف وتقديم)، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، ط1: 2011.

وعزي الحسين، نشأة الحركة الثقافية الأمازيغية بالمغرب، تحليل سيرورة تحول الوعي بالهوية الأمازيغية من الوعي التقليدي إلى الوعي العصري، مطبعة المعارف الجديدة، ط1، 2000.

AIT OUALI, N. (2015), L'écriture romanesque kabyle d'expression berbère (1946-2014), Alger, L'Odyssée éditions.

CHAKER, S. (1992), La naissance d'une littérature écrite, Le cas berbère (Kabylie), Bulletin des Etudes Africaines (INALCO) : IX (17/18).